التحامق فى العصر العباسى

للأستاذ صلاح الدين المنجد

فى العصر العباسى ظاهرة غريبة تلذ الباحث بطرافتها ولطافتها، هى التحامق وإظهار البلاهة تارة والغفلة مرة

وقد تدهش بادئ ذى بداءة وتعجب ؛ فإذا انثنيتَ على نفسك مفكراً متأملاً معتبراً ، أو مقايساً باحثاً ، علمتَ أن فى هذا التحامق من الصواب ما ينبئ عن حدة ذهن ، ودقة فهم ، وجودة حدس

فقد وجد الناس فى ذلك ضروباً من الفائدة ، فكانوا يلجأون إليه كلما ضاق عليهم الأمر ، وعسرت أمامهم المسالك ؛ فينالون ما يشتهون ، ويحظون بما يحبون . وما كانوا ليتحامقوا بعد علمهم أن أولئك الناس العوام أشدُّ منهم حمقاً ، وأقل فطنة ، وأكثر غباوة . وما لهم لا يتحامقون فى عصر قال العتابىُّ الشاعر عن ناسه إنهم بقر لا يفقهون

فقد ذكروا عن عثمان الوراق أنه رأى العتابى الشاعر يأكل الخبز على الطريق بباب الشام (فى بغداد) ، فقال له : ويحك ، أما تستحي ؟ قال : أرأيت لو كنا فى دار بقر كنتَ تستحى وتحتشم أن تأكل وهى تراك ؟ قال الوراق : لا . قال فاصبر حتى أعلمكَ أنهم بقر . فقام العتابى ، فوعظ وقصَّ وردعا ؛ حتى كَثُرَ الزحام عليه ، ثم قال لهم : « روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار ! » فما بقى أحد إلا أخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه ويقدّره ببلغُها أم لا ... فلما تفرّقوا التفت العتابى إلى صاحبه وقال : « ألم أخبرك أنهم بقر ... ؟! »

وكان أناس يرون فى الحمق الرَّوْح والراحة ، وطيب العيش فسعوا إليه ، وتحدّث الشعراء بذلك ، فقال أحدهم :

الروح والراحة فى الحمق
وفى زوالِ العقلِ والخُرْق
فمن أراد العيش فى راحةٍ
فليلزمِ الجهـلَ مع الحمقِ

وما ذلك إلا لأن العقل كان عدو الإنسان فى ذلك الزمان . يقول الشاعر القُسَّى :

تحامق ، تطبْ عيشاً ولا تكُ عاقلاً
فعقلُ الفتى فى ذا الزمانِ عدوّه

ولأن من يتحامق يريح ويستريح . فقد سُئل مرة زيد بن سعيد العبدى عن تحامقه ، فقال : « جَدَدت فشقيتُ ، ثم تحامقتُ فأرحتُ واسترحت »

وفيهما مشهد استعراض متحرك . يضاعف جمال المعنى الذهنى المجرد

ومثل بيتى المرى الفريدين :

رُبَّ قبر قد صار قبراً مراراً ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين فى طويل الأزمان والآباد

وما فيهما من سخرية مصورة شاخصة ، تتسق مع السخرية النفسية ، وتوضح رموزها وتجسمها

* * *

ونكتفى بهذه النماذج لتصوير ما نريده من الجمال الفنى فى الصور والظلال حين يرسمها التعبير . ثم ننبه هنا إلى لبس قد يؤدى إليه سياق المقال :

نحن لا نعنى أن طريقة التصوير وحدها تؤدى إلى أن يأتى كل من يتبعها بقرآن أو ما يشبه القرآن ، ولا أن يبلغ هذا المدى الذى بلغه مسلم والمتنبي والمعرى وكثيّر وغيرهم . فليست طريقة من طرق الأداء عصا سحرية تبلغ بمفردها مدى الإعجاز والعبقرية !

إنما نعنى أن هذه الطريقة أنسب للتعبير الفنى من الطريقة التجريدية ، وأن الشاعر الواحد يبلغ بها فى إنتاجه ما لا يبلغه من الجمال الفنى لو اتبع الطريقة الذهنية . ثم يبقى بعد ذلك مجال التفاضل فى الإحساس لم نمسه ، ولم نحاول البحث فيه . فتلك هبة توهب ، أما الطريقة فهى خطة يلفت إليها النظر ، وإن كان لها من الهبة اللَّدُنّية نصيب

سيد قطب

وكان أناس آخرون يتحامقون لينالوا الغنى . قالوا إنه كان في بغداد رجل عاقل ، أديب فَهِم ، شاعر ، يقال له عامر . وكان مع أدبه محروماً مجازفاً . فلما ضاق صدره ، أظهر التحامق والتجانن ، فتفقده صاحب له ، وجعل يطلبه حتى ظفر به في بعض القرى ، وحوله الصبيان ، يضحك ويضحكون . فقال له : يا عامر ، منذ كم صرت بهذه الحال ؟ فقال :

جَنَنْتُ نفسي لكي أنال الغنى
فالعقلُ في ذا الزمان حِرمان

وقد يدرك المتحامقُ الملوكَ بتحامقه فتحسن حاله ، ويزيد ماله . قالوا إن علياً القصريَّ كان ممن يجيد الشعر ؛ وكان محروماً لا يُؤبه له . فتحامقَ وأخذ في الهزل ، فحسُنت حاله ، وراج أمره ، حتى أن الملوك والأشراف أولعوا به ، فأفاد من هزله وحمقه المال الوافر ، والنشبَ الكثير . وذلك لأنه :

إن كنتَ تهوى أن تنال المالا
فالبس من الحمقِ غداً سربالاَ

فيسهل ما عسر ، وتوسر وتغنى ، وتقوم بقوت عيالك وأهلك

عذلوني على الحماقة جهلاً وهي من عقلهم ألذُّ وأحلى
ولقد قلتُ حين أغروا بلومي أيها اللائمون في الحمق مهلا
حمقي قائمٌ بقوت عيالي ويموتون إن تعاقلت هزلا

وقد يتحامقون لينجوا من آفة أو بلاء . أُدخِل عُبادةُ المحدِّث على الواثق ، والناس يُضربونَ ويُقتلون في الامتحان . (قتال) : فقلتُ والله لئن امتحنني قتلني ؛ فبدأته ، فقلت : أعظم الله أجرك أيها الخليفة . قال فيمن ؟ قلتُ في القرآن ! قال : ويحك ، والقرآن يموت ؟ قلت : نعم ، كل مخلوق يموت . فإذا مات القرآن في شعبان فبأيش يصلِّي الناس في رمضان ؟ قال : أخرجوه فإنه مجنون !

وكثيراً ما كان العلماء يتحامقون أو يتجانّون إذا دُعوا إلى القضاء . وكانوا يرون فيه مهلكة لا ينجو منها إلا من رحم الله . ويخافون أن يزلّوا فيعاقبوا . دعا المنصور أبا حنيفة وسفيان الثوري ، ومسعراً ، وشريكاً ، ليوليهم القضاء . قال أبو حنيفة : أنا أتحامق فيكم ، فأقال وأتخلص . وأما مسعر فيتجان ويتملص ، وأما سفيان فيهرب . وأما شريك فيقع . فدخلوا على المنصور ، فتحامق أبو حنيفة ، وتجانن الثوري ومسعر ، فنجوا

ومثل هذا فعل عبد الله بن وهب لما دعاه الخليفة ليتولى قضاء مصر ، فقد تجنن نفسه ، فلزم بيته

وقد حفلت كتب الأدب بنوادر رائعة ، غير ما ذكرنا ، عن التحامق والتجانن في هذا الباب . فمن أطرف ما يروى في ذلك أن رجلاً آلى بيمين أن لا يتزوج حتى يستشير مائة نفس لما قاسى من بلاء النساء . فاستشار تسعة وتسعين نفساً وبقي واحد . فخرجَ على أن يسأل أول من نظر إليه . فرأى مجنوناً قد اتخذ قلادة من عَظم ، وسوّد وجهه ، وركب قصبته . فسلّم عليه الرجل ، وقال له : مسألة . فقال المجنون : سل ما يعنيك ، وإياك وما لا يعنيك . قال الرجل : فقلت مجنون والله ، ثم حدثته أني أصبتُ من النساء بلاء ، وآليت أن لا أتزوج حتى أستشير مائة نفس ، وأنت تمام المائة . فقال اعلم أن النساء ثلاث . واحدة لك ، وواحدة عليك ، وواحدة لا لك ولا عليك . فأما التي لك ، فشابة طرية لم تمس الرجال ؛ فهي إن رأت خيراً حمدت ، وإن رأت شراً قالت : كل الرجال على مثل هذا . وأما التي عليك ، فامرأة ذات ولد من غيرك ، فهي تسلخ الزوج لتجمع لولدها . وأما التي لا لك ولا عليك ، فامرأة قد تزوجت قبلك ، فإن رأت خيراً قالت هكذا يجب ، وإن رأت شراً ، حنت إلى زوجها الأول . فأعجبني كلامه ، وملأ نفسي ، فسألته ما الذي غير من أمره : قال . رشحت للقضاء ، فاخترت ما ترى على القضاء

* * *

فهذي طرف تضحك بادي ذي بدء ، فإذا تأملها الإنسان وجد في عمل أصحابها العقل الحسن ؛ والتدبير الحازم ، والرأي السديد

(دمشق) صبوح العريس المجدد